مجلة الآداب، م٢٦، ع٢، ص ص ٣٤٩-٣٥٧، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٤م/١٤٣٥هـ)

البطل الضدّ في شعر الصعاليك: دراسة أسلوبية وظيفية

رسالة دكتوراه نوقشت في ٩/ ٧/ ١٤٣٥هـ، بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الملك سعود

هند عبد الرزاق المطيري

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض

الكلمات المفتاحية: البطل الضدّ، الصعاليك، الشعر.

ملخص البحث: تعدّ هذه الرسالة من الرسائل البكر التي تعرض لموضوع البطل الضدّ في الشعر العربي عامة والقديم خاصة، بحسبانه أحد العناصر المضمونية الوظيفية، وذلك لغاية الكشف عن القيم الدلالية المرتبطة بحضوره في النصوص، وعلاقات هذا الحضور بتجربة كل شاعر من الشعراء.

توطئة:

البطل الضدّ الذي تعنى به الدراسة وتعنيه هنا هو ذاك البطل الآخر الذي يأتي عادة تاليا للبطل الرئيس في سلم البطولة، ويظل مع ذلك وثيق الصلة بالحدث البطولي، تنتظمه أدوار ووظائف خاصة تُسند إليه خدمة لأهداف البطل الرئيس. هذا الشخص الآخر، الذي يساند البطل منذ أنكيدو وجلجامش، هو ما تصفه الدراسة بـ(الضد)، فالضدية، لا تعني الاختلاف مطلقا لكنها وصف يحدد موقع الآخر من البطولة ووظائفه التي يقوم بها خدمة للبطل الرئيس. فالضدّ- بحسب تصور هذه الدراسة- هو البطل الذي يتأخر دائما إلى المركز الثاني في نصّ البطولة، وهو بذلك يساوي- في أبسط وصف له- بطل الظلّ. هذا البطل(ظلٌّ) لأن البطل الرئيس يتخذ منه سلّما يصعد درجاته نحو البطولة التي ما كانت لتتحقق لولا وجوده؛ فالبطولة، دائما ومطلقا، تظلّ مرهونة بوجود الآخر(الضد)، وبالتفاعل القائم معه على مسرح الحياة، وهو تفاعل يتم تجسيده شعريّا عبر خطاطة القصيدة تجسيدا لا يطابق الواقع دائما وإن ظلّ الواقع مادته الأصلية.

والواقع أن منشئ النص(الصعلوك) هو من يحدد ملامح هذا(الضّد) بتخصيص مساحة معينة له، قد تضيق وقد تتسع بحسب الوظائف التي يريد أن يقدمها لـ(سامع/القارئ) مشتغلا بها، بما يخدم المعاني الجزئية والكلية للنصوص، ومن ثمّ فإن البحث عن هذا الآخر لا يمكن أن يتمّ خارج حدود لغة(الشاعر) واختياراته الوظيفية المقصودة. من هنا آثرت الدراسة- وهي توجه اهتمامها نحو البطل الضد في شعر الصعاليك- أن يكون مدخلها للتعريف بهذا البطل مدخلا لغويًّا بالدرجة

الأولى، يقف عند الاختيارات الوظيفية لكلّ شاعر من الشعراء عينة الدراسة، في محاولة للكشف عن التمايزات بينهم في أساليب تقديم هذا البطل الآخر. والدراسة بهذا التوجه تسعى جادة إلى تحقيق خصوصية التحليل الموضوعي لنصوص الصعاليك، بحيث تنطلق تحليلاتها من السمات الأسلوبية الوظيفية التي تُقديم من خلالها الشخصيات الضدّ، مع الإفادة من المنهج الأسلوبي الإحصائي في الكشف عن تلك السمات وتحديد نسب تواتر كل واسم ومعيّن لغوي يمكن استخدامه في رسم ملامح هذا الضد وترسيم حدود وظائفه التي يشتغل بها داخل الخطاب.

اختيار هذه المصطلح(بطل ضدّ)أدخل الباحثة لاحقا في أزمة مصطلح نشأت أساسا من وجود مصطلح سابق مقارب للمصطلح الذي استخدمته الدراسة لوصفها بطلها، ذاك هو مصطلح(البطل المضاد)، وهو مصطلح يشير إلى البطل السلبي الخجول الذي يتناقض بشدة مع الأبطال الآخرين، أي إلى البطل الرئيس في العمل الأدبي حين تنعدم فيه مقومات البطولة الكلاسيكية. لكن الدراسة حرصت بشدّة على التمييز بين مصطلحها والمصطلح الغربي منذ أن كانت خُطة بحث؛ لضرورة هذا التمييز في تحديد مسار البحث وتوجيه مسيرته لاحقا.

والدراسة تنتمي عامة إلى حقل الدراسات الأسلوبية، وتعتمد المنهجين الأسلوبي الوظيفي والأسلوبي الإحصائي الذين تفيد منهما في تحليل عينتها المنتخبة من شعر الصعاليك في العصر الجاهلي(تأبط شرّا، الشنفرى، عروة بن الورد). وغاية اختبار هذه العينة هي الكشف عن التمايزات الحاصلة في أساليب تقديم الشعراء للبطل الضد، بحيث يأتي في كل مرة خاصا ومميزا ووثيق الصلة بالتجربة والحياة الشخصية لكل شاعر. وقد حرصتْ هذه الدراسة جاهدة على الإفادة من معطيات الاتجاهات الحديثة في الدرس اللغوي؛ في جوانب التحليل والوصف والاستنتاج، ثم إعمال النسب والنتائج في تأويل الدلالات الجزئية والكلية للنصوص.

وقد بدأت مشكلة هذه الدراسة حين لاحظت الباحثة أن معظم الدراسات المقدمة حول شعر الصعاليك توجه عنايتها نحو المضامين لذاتها ومن أجل ذاتها، ما يجعل الخصائص الأسلوبية والوظائف التداولية غائبة بشدّة عن تلك الدراسات؛ ما يعني وجود حاجة ملحة لتناول أدب الصعاليك الثري من زاوية جديدة لم تُعمل فيها آلة البحث. ولأن الجدة هاجس مسيطر على الباحثين فقد رأت الباحثة أن تختار زاوية مختلفة عن الزوايا التي سُبر من خلالها شعر الصعاليك، من هنا جاء اختيار البطل الضد خاصة بوصفه شريك البطل الرئيس ونصيره في بطولته، وجاء تحديد الوجهة اللغوية خاصة لتكون قصد الدراسة الذي تؤمه ومتكأها الذي تستند إليه.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من جانبين:

الأول: قلة الدراسات الأسلوبية حول" البطل الضد/ بطل الظل" في الشعر عامة .

الثاني: قلة الدراسات الأسلوبية الوظيفية لشعر الصعاليك خاصة.

أما أهداف الدراسة فأذكر منها:

١. استقراءَ دواوين ثلاثة من الصعاليك هم (تأبط شرا، الشنفرى، وعروة بن الورد) للوقوف على

إمكاناتها اللغوية والأسلوبية المرتبطة بحضور البطل الضد، بغية الكشف عن الدور الذي يلعبه هذا الحضور الأسلوبي الوظيفي في لغة النصوص وتشكلاتها ودلالاتها.

٢ . الوقوفَ عند التجليات المختلفة للبطل الضد في قصائد الصعاليك، والكشفَ عن التباينات الحاصلة في أساليب تقديم الشعراء لهذا البطل بطريقة تحليلية موضوعية.

وقد حاولت الدراسة تحقيق أهدافها من خلال اختبار الفرضيتين الآتيتين:

الأولى إمكانيةِ الاعتماد على اللغة خاصة؛ بوصفها الركيزة الأولى في البناء الشعري من أجل الكشف عن الخصائص الأسلوبية المرتبطة بحضور بعض المضامين الوظيفية في النصوص الشعرية بما يمنح النصوص خصوصيتها الأسلوبية.

الثانية إمكانيةِ التباين بين الشعراء الصعاليك في الاختيارات اللغوية المرتبطة بوجود هذا العنصر الوظيفي(البطل الضدّ) في نصوصهم الشعرية، والوقوفِ على التباينات والتمايزات الأسلوبية في توظيفهم لهذا المضمون في النصوص.

ومن أجل التحقق من هاتين الفرضيتين قُسّمت الدراسة إلى ثلاثة فصول، بالإضافة إلى التمهيد، على النحو الآتي:

التمهيد، ويشمل المحاور الآتية:

١: البطلَ الضدّ: المفهوم والتناول النقدي

٢: الصعلكة: المفهوم والتاريخ.

الفصل الأول: اللغة وتعيين الذات: وهو فصل في اللغة ووظائفها الأسلوبية بعدّها وسيلة للتعرف على الذات ولتعريفها بالآخر الضدّ، ويتناول المحاور الآتية:

أولا: البطل الضّد وتقويض مركزية البطولة.

ثانيا: تشكل هوية البطل بين التمرد وتقويض مركزية البطولة.

ثالثا: مُعينات الذوات في شعر الصعاليك، وتنقسم هذه المعينات إلى:

١: المعينات الشخصية:

أ) الضمائر

ب) أسماء الإشارة والأسماء الموصولة(المبهمات المُعرِّفات)

ب/١ أسماء الإشارة

ب/٢ الأسماء الموصولة

ج) أسماء الأعلام(المعارف)

د) الأفعال

٢: المعينات المحيطة:

أ) الزمان

أ/١ الزمن التاريخي

أ/٢ الزمن اللغوي

أ/٣ الزمن الفلكي

أ/٤ الزمن الموسيقي

أ/٥ الزمن القصصي

ب) الفضاء:

ب/١ الفضاء المكاني(الجغرافي)

ب /٢ الفضاء النصي(الكتابة)

ب/٣ الفضاء الدلالي (الصورة)

ب/٤ الفضاء كمنظور(الرؤية)

ب/٥ فضاء التوقعات(القراءة)

الفصل الثاني: بنية القصة وأنماط البطل: وهو فصل خاص ببنية النصوص والشخصية القصصية، ويشمل المحاور الآتية:

أولا: البطل الضد وبنية القصة البطولية، ويتناول:

١: السرد

٢: الحوار

٣: الوصف

ثانيا: أنماط البطل والاستراتيجيات التعبيرية:

١: الـ(هو/ أنت) المماثل.

٢: الـ(هو/ أنت) المخالف.

٣: الـ(هو/ أنت) المفارق.

الفصل الثالث: البطل الضد ورؤية العالم عند الصعاليك: وهو فصل في رؤية العالم والدلالات الكلية للنصوص، ويشمل المحاور الآتية:

الذات بين الكينونة الفردية والكينونة الجماعية:

١: الذات بين التمرد والانضواء.

٢: الذات بين القوة والضعف.

٣: الذات بين ثنائية (الحياة والموت).

وقد انتهت الدراسة إلى تأكيد أهمية اعتماد اللغة بوسائطها المختلفة للكشف عن وظائف الشخصيات القصصية التي يوجهها البطل الرئيس نحو معان مقصودة مسبقا. كما تأكد للدراسة اختلاف الصعاليك في العصر الواحد في التعامل مع(البطل الضدّ)، ما يعني وجود اختلافات وتباينات كبيرة بينهم وبين صعاليك العصور اللاحقة في استخدام هذا العنصر الوظيفي الفاعل. وعامة فقد خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج، يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

أولا: على المستوى التاريخي:

١- اتضح للباحثة أن مفهوم الصعلكة في الجزيرة العربية يختلف تماما عن ذاك المفهوم الذي تبناه دارسو الأدب الجاهلي، والذي اختزل الدلالات اللغوية والعرفية للمفردة في دلالة وحيدة هي الدلالة على السرقة وقطع الطريق، وهي الدلالة التي لم يتوفر للباحثة ما يدعمها على مستوى شهادات السكان المحليين وعلى مستوى واقع استخدامها في النصوص، عينة الدراسة على الأقل. ومع أن الأمر مازال بحاجة إلى مزيد من التثبت إلا أن إثارة مثل هذا التصور جديرة بالاعتبار. والأمر، بعد ذاك، متاح للباحثين للنقض أو الاتفاق. ولولا أن موضوع الدراسة لا يتطلب الخوض في تلك التفصيلات التاريخية لكان للباحثة شرف تتبع الفكرة واستقصائها الاستقصاء اللائق بالبحث التاريخي للأدب.

٢- اتضح للباحثة أيضا خطأ كثير من الدراسات التي تعتمد النظر إلى شعر الصعاليك نظرة تطابق تام، بحيث يعمم أي استنتاج من ديوان شاعر على بقية الشعراء. فتلك الدراسات، وهي مبنية على فكرة تماثل النماذج في العصر الواحد، تنتهي أخيرا إلى جعل الصعاليك، في العصر الواحد، طبقة واحدة متماثلة متجانسة، يستوي فيها المتقدم زمانًا مع المتأخر، وهذا أمر يصعب قبوله والتسليم به. فعلى مستوى (صعاليك العصر الجاهلي) مثلا يصعب الحكم بالاتفاق التام بين(تأبط شرّا، والشنفرى) المتقدمين زمانيا من طرف و(عروة بن الورد) المتأخر زمانيا في الطرف الآخر، ذلك

أن اختلاف الظروف والأحوال التاريخية والاجتماعية يفضي بالضرورة إلى اختلاف في المعاني والأفكار، وهو اختلاف لا تستجليه الدراسات المقدمة حول الصعاليك في العصر الجاهلي. والباحثون إذ يضربون صفحا عن تلك الاختلافات داخل العصر الواحد لا ينجحون كثيرا في رسم خريطة كل عصر بالكيفية التي تكشف نقاط التماس والاختلاف بينه وبين العصور اللاحقة، وهو أمر غاية في الأهمية.

ثانيا: على مستوى الاختيارات اللغوية للشعراء:

اتضح للباحثة أن الاختيارات الأسلوبية للشعراء من شأنها أن تؤسس لقراءة دقيقة لعلاقة الذات المبدعة بإبداعها، لا على مستوى تصوير الأحداث التي قد يتزيد الفنان فيها مما هو من طبيعة الفن من الألوان والأصباغ الدلالية، لكن من حيث قدرة الذات على اختيار المواد اللغوية التي تترجم علاقتها بـ(الآخر/الضد)، بحيث يقع الاختيار على أنسب الأدوات تعبيرا عن موقف الذات من هذا الضد الذي تحرص حرصا شديدا على جعله في مختلف المواقف شاهدا على فاعليتها ووجودها. ويمكن توضيح ذلك في كل معيّن على النحو الآتي:

١- على مستوى الضمائر: ثبت للباحثة حرص الصعاليك المقاتلين(تأبط شرّا والشنفرى) على استخدام ضمائر الغائب للعدو بكثرة، بحسبان هذا العدو مصدر ضيق وتوتر للذات. وهذا أمر يختلف فيه معهم الصعاليك الاجتماعيون(عروة بن الورد) الذين يصبح العدو عندهم وسيلة لعرض حسنات الذات وفضائلها، ما يؤدي منطقيا إلى حضور ضمائره في مواقف التخاطب الآنية. كما اتضح للباحثة أنه عند حديث الصعلوك المقاتل عن رفاقه خاصة فإنه يصبح أكثر ميلا إلى استخدام ضمائر الجماعة(نا الفاعلين، واو جماعة الحاضرين خاصة) لما يؤديه هذا الاختيار الوظيفي المقصود من دلالة على وحدة الصفّ واجتماع الكلمة. أخيرا فإنه في ضمائر المرأة خاصة يلاحظ تباين الشعراء الثلاثة في استخدام تلك الضمائر من الحضور إلى الغياب بقدر ما بينهم من تباينات في العلاقة التي تربطهم بالمرأة. هنا يتقدم عروة بن الورد صاحبيه في حضور ضمائر المرأة مخاطبة في اللحظة الآنية، وذلك عائد إلى ما شهده واقع حياته من علاقات متنوعة بالمرأة داخل المجتمع القبلي.

٢- على مستوى أسماء الإشارة: يلاحظ على نصوص الدراسة عامة قلة الاعتماد على الإشارة باستخدام أسماء الإشارة، مع أن استخدم أسماء الإشارة، عند الشعراء الثلاثة، جاء موجها للدلالة على الذوات وأعمالها في أكثر الموضع في الدواوين. وقد سجلت أسماء الإشارة للبعيد والتوسط تقاربا كبيرا في تعدادها في الدواوين مقارنة بأسماء الإشارة للقريب، التي وردت بنسبة أقل. أما الأسماء المُشيرة إلى أقصى البعد فقد سجلت النسبة الأقل، و انفرد بها الشنفرى عن صاحبيه بحكم موقعه القصيّ من القبيلة والمجتمع.

٣- على مستوى الأسماء الموصولة: يتضح اعتماد الشعراء، عينة الدراسة، على تلك الأسماء لتعيين الذوات وتحديدها أكثر من الاعتماد عليها في وصف الأشياء المادية في العالم، وهي ذات الملاحظة المرصودة سابقا على أسماء الإشارة. ويشهد استخدام الشعراء لتلك الأسماء تباينات واضحة تتناسب مع مواقفهم من

الذوات القصصية واقعيا ونصّيا، لذا ترد الذات والرفيق موصوفين بالموصول في مواضع أكثر من تلك التي ترد فيها المرأة والعدو موصوفين به. كما يرد العدو مُعيّنا بالموصول في مواضع أكثر من التي يرد فيها الرفيق مُعيّنا به. أما المرأة فتنخفض مرات حضورها معيّنة بالموصول في مقابل مرات ورود أعمالها موصوفة به. تلك الاختيارات، في الواقع، وظيفية مقصودة في سياقاتها النصيّة لمناسبتها الأعمال التي تقوم بها كل شخصية على حدة.

٤- على مستوى أسماء الأعلام: يلاحظ وجود أسماء لأعلام ليسوا من دائرة الصعاليك عند تأبط شرّا وعروة، في حين تبرز أسماء رفاق الكفاح من الصعاليك عند الشنفرى، ما يؤكد وجود فوارق في علاقة الصعلوك بالآخرين. كما يتضح اختلاف الشعراء في انتمائهم للقبيلة الأم بين من يذكر أصولها وفروعها(عروة بن الورد)، ومن يكتفي بذكر الأصول فقط(تأبط شرّا)، ومن يحصرها في الفرع الذي ينتمي إليه خاصة(الشنفرى). أما أعلام المرأة فتختلف كثافتها في الدواوين باختلاف العلاقات الاجتماعية التاريخية لكل شاعر مع المرأة، هنا يتصدر عروة المجموعة بعدد أكبر من الأعلام النسوية ويتأخر الشنفرى، في المقابل، ليسجل العدد الأدنى منها.

٥- على مستوى الزمان: يلاحظ على الزمنية اللغوية خاصة استقرار دلالاتها(الصرفية والنحوية) عند الشعراء الثلاثة بما يتناسب مع اختلاف ظروفهم الواقعية وطموحاتهم المستقبلية، ففي الوقت الذي يركز فيه تأبط شرا والشنفرى على الفعل الماضي خاصة، يُظهر عروة بن الورد، صاحب التطلعات المستقبلية الكبيرة ميلا واضحا إلى استخدام الزمن المستقبل بوسائطه اللغوية المتنوعة. أما الزمنية الكونية فتشهد تفوق الصعلوك المقاتل على نظيره الاجتماعي في تتبع مظاهر الزمن ورصد تقلبات الحال، بوصفه الأكثر عرضة لمشكلات الزمن ومظاهر الطبيعة.

٦- على مستوى الفضاء الجغرافي: يلاحظ بروز ظاهرة(المكان العنيف) عند الصعاليك المقاتلين(تأبط شرّا والشنفرى) المتمثل في الجبال والكهوف والمراقب والوديان، والموسوم بالجدب والقحط وقلة الخيرات، مقابل الأمكنة الواردة عند الصعلوك الاجتماعي(عروة بن الورد) التي تبدو أكثر انبساطا، وأوفر عطاء، وأرغد عيشا، ما يعني تطابق المكان مع صاحبه، وقدرته على التشكل وفق ظلاله النفسية وظروفه الاجتماعية.

ثالثا: على مستوى بنية القصة الشعرية:

١- السرد: يتميز القصص الشعري عند الصعاليك بصدوره عن راو محدد معين منذ البداية، هو الصعلوك ذاته، الذي يبدو حريصًا باستمرار على ألا ينفلت مسار السرد من يده، ما يخلق عادة نهايات متماثلة- إلى حد كبير - في القصص المسرود. والصعاليك في سردهم يستخدمون تقنيات السرد المختلفة(الحذف،القفز، تعجيل السرد،...إلخ). ومعظم سرودهم من نوع الاسترجاعات؛ إذ هم- في الغالب- يتحدثون عن وقائع حصلت وانتهت في الزمن الماضي. هذه الاسترجاعات- عادة- تُستخدمُ في رواية أحداث لها علاقة بالمصير الذي تلقاه الشخصيات الأخرى(الضد) على يد البطل الرئيس، بعد تصوير معاناة البطل في

النزال معها. في المقابل، فإنّ الاستباقات، وهي قليلة حين تقارن بالاسترجاعات، ترتبط كثيرا بتصوير المصير الذي تؤلُ إليه الذات في المستقبل، وهو ما يمكن تفسيره بحالة القلق التي يعيشها الصعلوك بسبب غموض مستقبله.

٢- الحوار: يتفاوت الصعاليك في استخدامهم تقنية الحوار في نصوصهم القصصية تفاوتا يتناسب مع علاقاتهم الواقعية التاريخية مع المجتمع. هنا يستأثر عروة بن الورد بالعدد الأكبر والنصيب الأوفر من صيغ الخطاب وأساليبه، كما تتوافر خطاباته عادة على طرفي الحوار(مرسل- مستقبل). والحوار عند عروة يؤدي دورا وظيفيّا فاعلا حيث يؤكد، في سياقاته التي يرد فيها، كلّ ما تسعى الذات إلى تأكيده فيما يخص فلسفتها في الخروج والغزو. في المقابل تتقلص أساليب الحوار كثيرا عند الشنفرى، المنعزل عن القبيلة، ولا يصبح الصوت الآخر حاضرا إلا ما كان من حوار مع الطبيعة، برز بوضوح من خلال ظاهرة الصواتة العالية في شعره. أما تأبط شرّا فيأتي في مرتبة متوسطة بين صاحبيه من حيث اعتماد تقنية الحوار، ومن حيث حضور أطرافه في القصص الشعري، وهو ما يتناسب مع واقعه الاجتماعي، ووضعه المتوسط بين القبيلة والصعلكة.

٣- الوصف: يتفاوت الصعاليك في استخدامهم الألفاظ الواصفة وفيما يضفونه إلى الوصف من واسمات لغوية أخرى من شأنها أن تدعم الموقف الانفعالي للذات بالحدث والشخص والشيء المراد وصفه. وقد تبين من الدراسة أن معظم الألفاظ الواصفة يندرج تحت نوعين: (ألفاظ تحدد العلاقات- ألفاظ توضح الهيئات). فأما ما يخص النوع الأول فقد تبين اتساع دائرة العلاقات الاجتماعية عند عروة بن الورد خاصة، مقابل تقلصها التام عند الشنفرى الذي اقتصرت علاقاته على رفاق الصعلكة دون غيرهم. وأما ما يخص النوع الثاني فقد أظهر فيه الصعاليك المقاتلون(تأبط شرّا والشنفرى) تفوقًا كبيرًا على عروة من حيث الاهتمام بتفصيل الهيئات التي تكون للذات وللآخر في السياقات المختلفة. وقد لاحظت الدراسة عامة أن أغلب الأساليب المستخدمة في الوصف عند الشعراء عينة الدراسة هي(الإضافة والتعريف)، ما يعني ميل الشعراء إلى تخصيص الموصوفين وتحديد علاقاتهم المباشرة بهم. كما لاحظت أن الأوصاف التي تحدد العلاقة بالرفيق هي الأكبر عددا والأكثر تنوعا عند الشعراء الثلاثة، تليها الأوصاف التي تحدد العلاقة بالمرأة، مع تباين الشعراء فيها، وأخيرا الأوصاف التي تحدد العلاقة بالعدو، ما يعني ميل الشعراء إلى تقديم وصف العلاقات الآمنة على وصف العلاقات الخطرة.

رابعا: فيما يخص أنماط البطل والاستراتيجيات التعبيرية:

١- الـ(هو/ الأنت) المماثل: اتضح للباحثة بدءا اختلاف الشعراء في اختيارهم لعناصر المماثلة، واختلافهم في درجاتها أيضا، بين من يختار مشاكلة النماذج البشرية، ومن يختار مشاكلة الحيوان وغيره من الكائنات. كما اتضح اختلاف الشعراء في درجات المشاكلة أيضاً، بين من يستخدم التطابق التام مع النماذج الأخرى من يستخدم التطابق الجزئي معها. هذا الاختلاف هام جدا في تحديد المسافات بين الذات والآخر قربا وبعدا. وقد استأثر الشنفرى بالنسبة الأكبر لنماذج

المماثلة من خلال علاقته القوية برفاقه الصعاليك، الذين كان يسميهم بأسماء الحيوان حرصا على مماثلتهم للذات التي اختارت التسمي باسم الحيوان أيضا. تلك الظاهرة أوهمت بعض الباحثين أن الشنفرى كان قد اتخذ من حيوان الصحراء بديلا عن البشر، مع أنه كان يقصد رفاقه الصعاليك الذين يماثلون الحيوان مماثلة تامة(١). تلاه تأبط شرّا الذي أظهر شعره ميلا واضحا للمماثلة الجزئية من خلال الميل إلى تشبيه الذات بالحيوان في بعض مظاهر قوته لا التسمي باسمه. أما عروة بن الورد فقد كان أقل الشعراء ميلا لاستخدام هذا النمط من الشخصيات والنماذج ؛ نظرا لما عُرف به شعره من نزعة لإثبات المباينة بين الذات والآخرين في البذل والعطاء خاصة.

٢- الـ(هو/ الأنت) المخالف: هو النمط الذي تفوق فيه عروة بن الورد على صاحبيه من خلال حرصه الدائم على عرض النماذج المتقابلة في شعره. وعند عروة- دائما- تكون الذات في الطرف الراجح من الميزان، ويصير الآخر عدوا كان أو رفيقا أو حتى زوجا حميما، في الطرف المقابل الذي يمثل السلوكيات المخالفة لما تنادي به الذات، ما يجعل تلك النماذج عصب توتر حقيقي في القصص الشعري، يدفع إلى مزيد من المباينة. ويظهر هذا النمط عند تأبط شرّا بنسبة أقل وبحدة أقل أيضاً، لكنه، عند الشنفرى، يتقلص كثيرا، نظرا لميل الشنفرى الكبير نحو الوحدة والانصهار مع الجماعة البديلة.

٣- الـ(هو/ الأنت) المفارق: في هذا النمط يتفوق تأبط شرّا على صاحبيه، من خلال استخدامه للشخصيات المفارقة ممثلة في شخصية(الغول) بالصورة التي ظهرت عليها في قصصه الشعري المتنوع. ثم يأتي تاليا نموذج المرأة المفارقة الذي يتقاسمه مع عروة بن الورد، من خلال الشخصيتين المعاديتين(سلمى) و(تماضر) على الترتيب. أما الشنفرى فيختزل هذا النموذج في شخصية(أميمة)، المرأة المثالية، التي ترمز للجمال المطلق بالصورة التي ظهرت عليها في قصيدته التائية.

خامسا: فيما يخص الذات بين الكينونة الفردية والكينونة الجماعية:

١- الذات بين التمرد والانضواء: هي الحالة التي جسدها الشنفرى من خلال علاقته المنبتّة كليا مع المجتمع القبلي. وهي حالة ظهرت من خلال تمرد الشاعر على مواضعات القبيلة بدءا، ثم تأزم العلاقة مع القبيلة الفرع(سلامان بن مفرج) الذي أدى إلى الخروج الكلي على القبيلة الأم ومناصبتها العداء. وقد نجح الشنفرى في تصوير عداوته الضارية لقبيلته حيّا وميتا، على مستوى الواقع والأسطورة معا.كما نجح في التعبير عن الإنضواء للجماعة البديلة(الرفاق) الذين صاروا أهلا ومستودعا للسرّ، على ما وصفهم به في قصيدته اللامية.

٢- الذات بين القوة والضعف: هي الحالة التي جسدها تأبط شرّا تحديداً، من خلال استخدامه خطاب القوة في شعره. وهي قوة جسدية(شخصية) بالدرجة الأولى ما يجعلها مميزة عن القوة عند صاحبه ورفيقه

---

١. قوله: ولي دونكم أهلون سيْدٌ عملّسُ
وأرقطُ زهلولٌ وعرفاءُ جيئلُ
هم الأهلُ لا مستودعُ السر ذائعٌ
لديهم، ولا الجاني بما جرّ يُخذلُ

المقاتل(الشنفرى) على الأقل، ففي الوقت الذي تحدث فيه الأخير عن قوة سلاحة المادي ممثلا في(قوسه ونبله) وسلاحه المعنوي ممثلا في(صبره وترفّعه)، ركز تأبط شرّا في شعره على قوته الجسدية ممثلة في(سرعة عدوه)، وهي القوة التي حرص على تجسيدها في أكثر الكائنات الحية مماثلة للذات، أعني الطير، في صور متنوعة من شعره.

٣- الذات بين ثنائية (الحياة والموت): هي الحالة التي جسدها عروة بن الورد خاصة، من خلال حرصه على استمرار حياته، التي تعني تحقيق طموحاته المستقبلية في الكسب والغنى، وحرصه على خلود ذكره بعد الموت. هذا مع الفارق الكبير بين الحياتين في نظر الشاعر الذي يبدو في شعره أشدّ حرصا على البقاء والخلود الجسدي، لأن ذلك ما ترجوه الذات أولا وأخيرا. وقد أسهمت الواسمات اللغوية في ذلك، ومنها استخدام الأساليب المُخلّصة للمستقبل(الشرط، والتعليل بـ(كي، وللام)، وغيرها من الوسائط اللغوية. وقد تبين للباحثة من خلال المقارنة بين خطابي الكرم عند عروة بن الورد وحاتم الطائي خطأ من توهم من الباحثين أن عروة كان كريما، ومن ذهب إلى تقديمه على حاتم في البذل والعطاء من القدماء والمحدثين. والدراسة، - وهي تستوفي مهمتها أخيرا- تدرك أن ما قدمته يظل جهدا فرديا يحتاج إلى المزيد، حين يكون هذا المزيد مُضِيفا لا مضافا فقط، لذا تحث الباحثين على اقتحام عوالم الخطاب الصعلوكي المميز من نواحي أخرى لم يسبر غورها بعد؛ أهمها جانب موسيقى الشعر، الذي سجل فيه الصعاليك خصوصية ومباينة لا يمكن تجاهلها.